بنية النص الروائي في "زمن الأخطاء"

الدكتور حميدي بلعباس – كلية الآداب – جامعة معسكر– الجزائر

يولي النقد المغربي أهمية بالغة بالسيرة الذاتية، بوصفها كتابات متمردة، حاولت رصد التجربة الذاتية وهي تواجه الواقع المر الذي تعيشه المجتمع المغربي.

لقد حاول الأديب أن يعبر في لحظات مملوءة بالرهبة واليأس والانكسار ،عن الواقع بقسوته و(يجمع شتات تفاصيل كثيرة لتجربته الحياتية الخصبة والغنية بالأحداث والوقائع والتي تتجاوز حدود الذات الفردية الضيقة لتجسد واقعا موضوعيا تفاعلت معه ذات الكاتب ماضيا ،وتأثرت به حاضرا ،فصاغته خلقا أدبيا تداخلت فيه الكتابة عن الذات مع الكتابة الروائية ،ومن ثم،تم إضفاء التخييل على الموجود بالفعل)[1].لقد شكلت الرواية المغربية عنصرا فعالا في وجزءا متمما لرواية العربية ،ذلك ما شغل الناقد عبد المالك مرتاض حيث يقول : (وسيكون أي حديث عن الرواية العربية المعاصرة بمعزل عن الرواية المغربية ميزانا طفيفا في الكيل،ورؤية ناقصة في الإدراك فالرواية المغربية لم تعد جزءا مكملا للرواية العربية فحسب،وإنما اغتدت كيانا أساسيا فيه .وتعد الرواية المغربية إذا راعينا المنحى الكمي الصرف،رصيدا نصوصيا ثريا استطاع أن يثري النص الروائي العربي ويرفده بزخم متوهج من الطاقة والحيوية والنضارة بحيث نلفي عدد هذه الروايات يجاوز الأربعين في ظرف ربع قرن فقط (1956–1982.)[2]

وفي اتجاه مقارب ،يشير الناقد إلى استفادة هذه الرواية من تقنيات الكتابة الروائية الحداثية .وهذه دعوة صريحة من الناقد عبد المالك مرتاض إلى التعريج عليه ومساءلتها .

يثير الناقد عبد القادر الشاوي الكثير من التساؤلات عن وهو يحاول دراسة المتن السير ذاتي في المغرب ،ويعتبر أن (النصوص السير ذاتية أخذت تؤسس لنفسها وضعا أدبيا بين الأجناس الأخرى المتداولة ،من المحتمل أن يضفي عليها طابع التأسيس ....ومن خلال تتبعنا للنصوص السير ذاتية الصادرة في المغرب،طوال العقود الأربعة الماضية ،بقطع النظر عن طبيعة تواترها في هذا الصدور،يمكن الوقوف ،إجمالا على خمسة أشكال متمايزة نسبيا لمفهوم الكتابة السير ذاتية،نستخلصها من التسمية الأجناسية المصاحبة لها :1- السيرة الروائية الشطارية ،2-السيرة الروائية ،3-السيرة الذهنية ،4-السيرة الذاتية ،5-نصوص غفل غير متجنسة)[3].يبدو من وراء هذا الطرح ، بروز اختلاف بين النقاد المغاربة فيما يخص التحديد الأجناسي للكثير من النماذج ،وذلك راجع إلى تطور أشكال الممارسة الإبداعية ،ينضاف إلى هذا –حسب الناقد– رؤية النقاد من خلال مختلف الأسئلة النظرية التي الاشتغال النقدي على النصوص ومدى مسايرته للتطور الثقافي الحاصل في المغرب[4].

لقد انتبه الناقد عبد القادر الشاوي إلى اشتغال رواية "زمن الأخطاء" لمحمد شكري بأكثر من ميثاق للقراءة ،أي العلامات أو المؤشرات الموجودة على نفس الكتاب (الغلاف مثلا)،لتتعدى ذلك وتتضمن معلومات منشورة أو مبتوثة حوله.

ولا يخفي الناقد انبهاره بهذا النص ،كونه(سيرة ذاتية ذات مقصدية معلنة، وأنه لا يمكن ،في رأيي ،أن يقرأ ،مهما كانت طبيعة القراءة إلا بافتراض هذه الطبيعة التجنيسية الأساسية)[5].هذه المسالة أرقت النقاد المنظرين للسيرة الذاتية ، وظل هذا الجنس يستدعي القراءة تلو القراءة ،دون أن يستقر النقد على تعريف عام، وفي هذا الشام يقول فيليب لوجون (PhilippeLejeune): (يجب أن يكون

الموضوع أساسا هو الحياة الفردية وتكون الشخصية ،غير أنه يمكن أن يشمل غالى جانب ذلك على التعاقب والتاريخ الاجتماعي أو السياسي فالأمر يتعلق هنا بمسألة تناسبية أو بالأحرى بمسألة تراتبية :إذ تقام بالطبع عدة تبادلات مع باقي أنواع الأدب الشخصي (مذكرات ،يومية مقالة) ،وتبقى للمصنف حرية معينة في فحص الحالات الخاصة)[6].يبدو أن السيرة الذاتية لا تكتب بأسلوب واحد ،بل تكتب بأساليب متعددة ذلك لان أشكال الكتابة عن الذات متعددة [7].لقد استبدلت الذات القهر وتحارب الحياة بسلطة الكتابة .

إن "زمن الأخطاء" يستعيد –حسب الناقد-(تجربة الفرد في الزمن الماضي ،ويعيد صياغتها لغويا وذهنيا ،قصد بناء تاريخ أناها بناء متسقا له أبعاده الرمزية والدلالية)[8].هذا التصور الذي انطلق منه الأديب هو الذي شكل وجود الذات عبر هذا الانجاز ،أكثر مما سعت لذلك الشخصية الطبيعية المتمثلة في شخص محمد شكري الإنسان .

ينطلق التحليل الذي اعتمده الناقد عبد القادر الشاوي من فرضية مفادها أن زمن الأخطاء بقدر الذي يتخلق فيه كنص أدبي ،تؤطره شخصية ساردة دالة على المؤلف ومحيط عائلته .

ومن السهل (أن نجد ما يقنعنا بهذه المرجعية في النص ،وخصوصا في إحالتها على بعض الشخوص الواقعيين (المختار الحداد ،محمد الصباغ ...)وكذا بعض الفضاءات المعروفة ك(طنجة ،العرائش ،تطوان) دون أن نهمل بالطبع ما ورد منها صريحا ،أو يؤكدها ضمنيا في "الخبز الحافي "،الكتاب الأول للمؤلف الذي جعله سيرة ذاتية شطارية)[9].لقد كان الناقد عبد القادر الشاوي وفيا لهذا النص ،فاستعادة الماضي وواقعية الشخصية ووجودها والتطابق ما بين الشخصية الساردة والمؤلف جعل منه نصا سير ذاتيا .

وبناء على ذلك ،سعى عبد القادر الشاوي إلى تقسيم النص إلى بنيتين متجاورتين متداخلتين هما:بنية البناء وبنية الهدم ،ناظرا إليهما من خلال مفهوم واحد ،هو السارد.

يتألف زمن الأخطاء –حسب الناقد –من قسمين كبيرين يتواجدان في النص ولهما دلالة على مستوى القراءة التأويلية .

-أ- يبدأ القسم الأول بما احتواه من عناصر (محمد شكري ،العنوان :زمن الأخطاء ،التسمية :رواية) ،ولا يتضمن المقدمة التي كتبها الناقد محمد برادة ،ولكنه يبدأ بصورة فعلية بعنوان دال :زهرة بدون رائحة ص16 ،ولا ينتهي إلا في ص 162،أي نهاية عنوان آخر كمن العسل إلى الرماد[10].

-ب-يبدأ القسم الثاني-حسب الناقد- ويتواصل مع القسم الأول من ص165(العيش في زمن الأخطاء) ،وينتهي عند آخر صفحة من الكتاب ص286 نهاية شعرية .

ويتضمن القسم الأول ثلاث مسارات يذكر الناقد منها: التعلم،العمل،الجنون ،تبدأ الدورة الحياتية فيه بوصول السارد /المؤلف إلى مدينة العرائش قصد التعلم ،وينتهي بتعيينه في مدرسة في مدرسة الحي الجديد للبنين بتطوان ،ثم يختم نهاية الدورة الحياتية بالجنون ، ويورد الناقد مقطعا دالا على ذلك (ذات ليلة أعلنت إفلاسي الجسدي والمعنوي ينهاران .كنت في مقهى (براسري دو فرانس). لست أدري لماذا كنت أصرخ لاعنا الفراعنة .هددت الحاني بكسر واجهة الزجاجات إذا هو لم يناد على رجال المطافئ، لكنهم جاءوا .شربت آخر كأس قبل أن أصحبهم .سمعت الحاني يقول للنادل :مسكين لقد جننته الكتب)[11].ويعتبر الناقد هذا القسم بمختلف إشاراته صيغة لبناء التاريخ الفردي للأنا الساردة (محمد شكري) ،فقد كتب في زمن آخر1990.م كما أن بعض فصوله

نشرت على صفحات الجرائد ،لتجمع في شكل كتاب معبر، سعى إلى بلورة الوجود الفردي من خلال عنصرين مهمين هما :[12]

–أ– الاستعادة :

تبدأ –حسب الناقد– من زمن قريب نسبيا، وتكون بالعودة إلى مسقط الرأس ،والحديث عن المجاعة (1945م) التي حلت بالريف المغربي ،دون أن تكون للمترحل أدنى علم بالهدف المرتجى من هذه الرحلة .ويكون منتهى هذا البحث (الوصول إلى محطة أساسية هي الإقرار بضرورة التعلم والانخراط في تحصيل ما سوف يجعل من الشخصية مسار تجربة وتعلم).[13]

ويستشعر النـــاقد في هذا المقام ،إدراك الأديب لنفسه وشعوره الفردي بكيانه ،وضمن هذه الاستعادة (بالمعنى الذي يفيد تملك المـــاضي ،تتأسس الحياة الشخصية أيضا، من خلال العلاقات والذكريات ،ولذلك تتخلل السيرة الذاتية صور أناس (شخوص) تلاقت ،–في لحظة ما–مع صورة الكاتب وهو يبحث عن هويته هنا أوهنـــاك ،مثلما يمكن الحديث عن علاقات خصوصية انعقدت في هذا المكان أو ذاك وكان لها بعض الأثر في توجيه السلوك أو التأثير بفكرة أو موقف...وهكذا)[14]. لهذا تعمل كتابة السيرة الذاتية على جمع أطوار الحياة الإنسانية في مدها وجزرها ،وهي بذلك إعادة إنتاج للوعي الفردي وسعي إلى انفتاح الذات على الفضاءات المتعددة.

–ب– المونولوغ التذكري :

يلحظ الناقد عبد القـــادر الشاوي ضمن قراءته رواية "زمن الأخطاء" (تحررا واضحا في استرجاع الوقائع التي تساكن الماضي الشخصي ،بل ولعلها تبدو للقارئ صورا متجاورة ،تلتقط بعض لحظات المعيش، دونما اعتبار لتواليها في الزمن التذكري)[15].لقد ساعد المونولوج الداخلي الذي تجسد في النص الذاكرة على

استرجاع الذكريات الماضية ، وكان الحضور المسترجع –حسب الناقد– لذكريات الستينيات ،مما يضفي على هذه الذكريات في زمنها الأثر البالغ في نفسية السارد/المؤلف .فهي لا تنتظم في السيرة الذاتية إلا من خلال التذكر[16].

*** الهوامش :**

1–بن جمعة بوشوشة ،مراجع الكتابة الروائية في المغرب ،مجلة التبيين ،العدد1997،11،ص18.

2–عبد المالك مرتاض ،بنية السرد في الرواية العربية المعاصرة–الجنازة نموذجا،مجلة تجليات الحداثة جامعة وهران ،العدد3،يونيو 1994 ،ص17.

3–عبد القادر الشاوي ،الكتابة والوجود ،السيرة الذاتية في المغرب ،ص29.

4–المصدر نفسه،صص28.29.

5–عبد القادر الشاوي ،الكتابة والوجود،ص170.

6–فيليب لوجون ،السيرة الذاتية ،الميثاق والتاريخ الأدبي ،ترجمة وتقديم عمر حلي ،المركز الثقافي العربي ،ط1994،1،ص23.

7–ينظر محمد الباردي، عندما تتكلم الذات،ص178.

8–عبد القادر الشاوي ،الكتابة والوجود ،ص171.

9– المصدر نفسه ،ص171

10–المصدر نفسه ،ص172.

11–محمد شكري ،زمن الأخطاء ،مطبعة النجاح الجديدة ،المغرب ،ط1992،1،ص169.

12– عبد القادر الشاوي ،الكتابة والوجود ،ص173.

13– المصدر نفسه ،ص173

14– المصدر نفسه،ص 174.

15– المصدر نفسه ،ص 174.

16–المصدر نفسه ،ص175